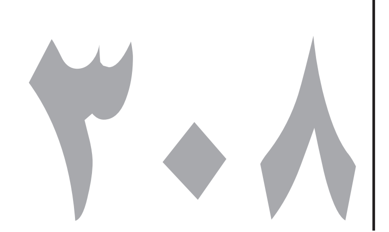
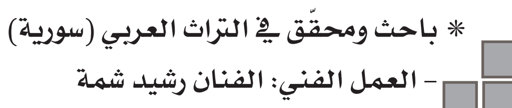


ثقافة محقق التراث العربي

إياد خالد الطبّاع *

تحفل المكتبات الوطنية والعامة والخاصة بعدد وافر من المخطوطات العربية وذلك في جلّ بلدان العالم ؛ ذلك أنه يتوافر فيها ما مقداره خمسة ملايين مخطوطة على قول المكثرين، وثلاثة ملايين على قول المقلّين، جلّها احتفظت بها خزائن تركية ثم الهند وإيران، وحافظت البلاد العربية على قسم منها لا أقدّره يعدل الثلث، وتبعثر الباقي في مكتبات أوربية وآسيوية وأمريكية.

لذلك فإنّ تحقيق المخطوطات ونشرها يعدّ عملاً علمياً نبيلاً يتم به إحياء تراث مهجور، أو فاقد مجهول، أو معرفة غائبة.



* باحث ومحقّق في التراث العربي (سورية)

- العمل الفني: الفنان رشيد شمة

وإذا اختصرنـا تعريـف التحقيق بأنه بذل الجهد لإخراج نصِّ المؤلف كما يريده صاحبه[١] «أو على وجه تقرب من أصله»[٢]، فإن البعض يـرى أن الاكتفاء بتقديم نص صحيـح = لا يبدو تاماً من غـير توضيح، والخشية من إثقال النص لا معنى لها حين تكون ذريعةً للتهرب من المشكلات[٣].

ويقـول الدكتور رمضـان عبد التواب: «وليسـ معنى قولنا: (يقرب من أصله) أننا نخمّن أيّة قراءة مُعيّنة (للنص المخطوط)، بـل علينا أن نبذل جهـداً كبيراً في محاولة العثـور علـى دليـل يؤيّـد القـراءة التي اخترناها». [٤]

إنّ أهمية التعريف ومعرفة حدوده تشكّل مطلبـاً هاماً في هذا البحث لما يترتب عليه من نتائـج يقوم البحـث بمعالجته. لذلك رأيـت أن أضع بين أيـدي المهتمين مذكرة في توصيـف ثقافة محقق الـتراث العربي من حيـث ثقافته فحسب؛ دون التعرض لما اصطلح عليه بصفات المحقق التي لها مجال بحث آخر. [٥]

وعليه فإننا نستطيـع أن نوصف ثقافة المحقق كما يلي:

١- التمكن من العلم الذي يخوض غماره والخبرة بالعمل الذي يمارسه، وحسن الفهم لما يقرؤه ويمارسه [٦]، فكيف لمحقق كتاب في النحو لأحد علماء السلف في القرن الثالث الهجري، ولم يتمرس الرجـل في الأساليب القديمـة، وطريقة عرض المادة لدى علماء هذا القرن، من حيـث الاستطراد، وتوارد الخواطر، والمعلومـات المختلفة، والإيجاز، واستعمـال مصطلحات قـد انسحبت من كتـب القوم في العصور التالية [٧]، فـ «نائب الفاعل» كان يسمى قبل ابن مالك النحوي المتوفى سنة ٦٧٢هـ: «المفعول الذي لم يُسمّى فاعله».

٢- درايتـه بالمكتبـة العربية على وجه الإجمال مـن مصادر ومراجـع، ولاسيما الكتب المتعلقة بموضوع الكتاب الذي يحققه أو الكتـب التي استمدّت منه أو من مؤلفه، والرجوع إلى تصانيف أقرانه وتلامذته، فقد يكون هنـاك اقتباس أو تضمين، وذلك قد يصـوب تصحيفاً أو تحريفاً ورد في أصوله الخطية، أو يرمِّم نقصاً أو خرماً وقع فيها. وأمّـا معرفته بالكتب موضـوع بحثه فقد تقـوم -إضافة إلى مـا سبق- اعوجاجاً في فكـرة أوردها المؤلف، أو تصحيحاً لنقل أو إشارة مرجعية.

٣- درايته بالمصـادر والمراجع موضوع بحثـه، والكتـاب الذي يحققـه على وجه الإحاطة شبه الكاملـة المستطاعة من قبل المحقق، وتنقسم إلى:

أ- مصادر ومراجع أصلية تتعلق بموضوع الكتاب المحقق.

ب- مصادر ومراجع تتعلق بثقافة عصر المؤلّف.

ج- مصادر ومراجع تتعلق بكتب تلاميذ المؤلف الذين من المحتمل أن ينقلوا أقواله.

د- مصادر ومراجع متعلقة بكتب مؤلفة في عصر المؤلف أو بعد عصره من المحتمل أنها نقلت نصوصاً عنه.

هـ-مصادر ومراجع أخرى يرى الباحث بفطنته ودرايته ضرورة جعلها أصلاً يعتمد عليها في عمله، أو يعدها مصادر ثانوية يستأنس بها حال الضرورة.

وما ذكرته آنفاً من ذلك تكون معواناً للمحقق في فهم النص والعلم بأحواله وظروفه وبيئته، فضلاً عن تزويده تصحيح لتحريف أو إكمال لنقص.

٤- درايته بالببليوغرافيات والفهارس: ذلك أنها تساعد الباحث في التقصي عن بغيته في العثور على النسخ الخطية التي سيعتمدها في التحقيق وأدوات البحث العلمي اللازمة له.

٥- معرفته بعلوم العربية: إذ إن معرفته بعلومها يستقيم فيها رسمه ووصفه، وتمنعه من الوقوع في الزلل في قراءة النص وضبطه وتصحيحه، بل إنها تساعده في تقويم اعوجاج في التركيب، أو نقص أو تصحيف أو تحريف في المتن.

ويعرف التصحيف بأنه التغير الحاصل على الكلمة من حيث الشكل (أي الحركات: الضمة والفتحة والكسرة) مثل تصحف

(كِــرام) إلى (كُرام)، أو النقط في الحروف المتشابهــة كــ (الســين والشــين، والصاد والضــاد، والطاء والظاء) مثــل تصحيف (جمل) إلى (حمل).

ويعرف التحريــف بأنه التغير الحاصل على شكل الكلمــة كإبدال حرف بآخر غير متشابه ممل تحريف (جبل) إلى (حقل).

٦- معرفته بأصول فن التحقيق؛ من حيث ضبــط النص، وتصحيحــه، وإكمال السقط، واتباع الرســم الإملائي المعاصر، وتكميــل الاختصــارات والرمــوز، ووضع العناويــن، وترقيم المسائــل، وإثبات فروق النسخ، وضبط الآيات القرآنية وتخريجها، وضبــط الحديــث الشريــف وتخريجــه، وتخريج الشعر وضبطــه، وتخريج الأمثال وضبطهــا، والتعريف بالأعــلام والأماكن والمواضــع والبلــدان وضبطهــا، وتخريج النصوصــ المقتبســة، وشــرح الغريب من الــكلام وحوشي الألفــاظ، ووضع الشروح والتعليقــات المناسبة، وشــكل ما يُشكل من الكلــم، ووضــع علامات الترقيــم، وإثبات مصادر ومراجع التحقيق، وصنع الفهارس الفنيــة اللازمــة، ووضع مقدمــة للتحقق تعرف بالمؤلف والكتاب وموضوعه ونسخه الخطية.

وكما يلاحظ فإن المحقق قد يقوم بإجراء هذه العناصر كلها أو بعضها، حسب منهجه، أو حسب ما يراه مناسباً للكتاب المحقق، أو يعرج إلى تعديل بعض مــا أوردناه؛ فيهمل الشَّكل إهمالاً تامــاً، أو يشكل إشكالاً تاماً دون أن يكتفي بشكل ما يشكل من الكلمات، على سبيل المثال.

٧- معرفتــه بأصول نشــر الكتب من حيث الإخراج الفني للنص التراثي المطبوع وتحريره: فالناشــرون والمحققون كثيرون، لكن المتقن لصناعــة الإخراج الفني للنص التراثي وتحريره قليل ونادر.

وتفصيــل ذلك أنه قد يخيل للبعض أن الــورق الجيد والتجليد الممتــاز والزخرفة المتقنــة والغلاف الملون أمــارات تجعل من الكتاب متقناً وهذا أمر بعيد عن المقصود، بل إن إنشــاء العناوين للنصوص المسهبة(٨) وترقيــم النصوصــ والمسائــل(٩) ووضــع علامات الترقيم، وصنــع الفهارس الفنية، وإثبات مصادر ومراجع التحقيق وتوصيفها - أمر يرقى بالكتاب؛ ثم تأتي مهمة الناشر بأن يتم إخراج الكتاب بشكل ييسِّر للباحث تناوله، فيضع الترويسات المناسبة في أعلى كل صحيفــة لتكون معبرة عــن موضوعها، فيتمكــن الباحــث أثناء مراجعتــه الكتاب من الوصــول إلى المعلومة بيســر وسهولة، إضافة إلى مهمته مع المحقق في تبيان اسم

المؤلف كاملاً على صفحة العنوان ووضع اسم شهرته المعروفة بين أهل العلم على كعب الكتاب، لئلا توضع نسبة مغمورة أو يشترك فيها مع الكثيرين من الناس؛ كمن وضع على كعب كتاب (الشافعي) بدل (ابن حجر)، لأنه رأى النسبة الأخيرة لمؤلف الكتاب الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، بينما شهرته (ابن حجر) طبقت الآفاق.

٨- ملاحظة المحقق قيمة النسخ؛ ولاسيما عند نقل شواهد منها. وتظهر قيمتها العلمية بقدمها وقربها من عصر المؤلف والسماعات والقراءات والمطالعات المثبتة عليها.

فالسماعات والقراءات والمطالعات المثبتة على الأصل الخطي قرائن تساعد على إظهار القيمة العلمية ؛ وقد اعتنى العلماء، وأهل الحديث خاصة، بضبط مصنفاتهم، والتحري في نقلها، واستخدمت مجالس التحديث وسائل لهذا الضبط ببيان من قرئ الكتاب عليه، أو تلقى منه، ومن تولى ضبط هذا المجلس، ومن شارك فيه، ومن تلقى القراءة، وأين كان ذلك، ومتى، وما القدر المقروء أو المسموع، وهل شارك الجميع في هذا القدر، وختم الكتاب، وتبيان اسم الناسخ، وسنة النسخ إلى غير ذلك مما يعد وثيقة تاريخية، وتوثيقاً علمياً[١٠].

٩- معرفة مكان كتابة المخطوط وزمانه: إذ توجد قرائن تدل على مكان كتابة النسخة الخطية وزمان نسخها، تحملها النسخة في طياتها وقد أشرت في بحث مسهب إلى الكثير من هذه الدلائل، منها معرفة الخط وتاريخه، وتاريخ التجليد وفنونه، ونوع الكاغد والرق والحبر، والعلامات المائية «(LE FILLIGRANCE) بالفرنسية، و(WATER MARKS) بالإنكليزية»، التي كان يعلمون بها الصناع ورقهم، فإذا وضعت الورقة على الضوء ظهر لك شعار صانعه.[١١]

١٠- الإلمام بفن الزخرفة والتجليد وأنواع الورق: إذ إن العلم بأشكال الزخرفة وسمات التجليد ونوع الورق ومعرفة منشئه= تعد قرائن قوية في معرفة تاريخ نسخ المخطوط والعصر الذي دون فيه، ولاسيما أن العلامات المائية التي تحدثنا عنها تشكل معوناً كبيراً في ذلك للمخطوطات المتأخرة المنسوخة بعد القرن التاسع الهجري (القرن الخامس عشر الميلادي).

١١- معرفة تاريخ المخطوط، وما طرأ عليه أثناء تأليفه ونسخه: لا يقدر للمحقق والباحث في أكثر الأحيان الاطلاع على المخطوط ومعاينته بيده، ولا سيما إذا كان مصوراً، لذلك فإن دور مفهرس

المخطوطات في إ توصيف دقيق يشفي غليل الباحث ويجيب على أسئلته المتوقعة= يعد أمراً هاماً ومطلباً مهماً، وهو الأمر الذي يجعلنا نميل إلى الأخذ بمدرسة التوسع في توظيف المخطوط أثناء فهرسته، نظراً للبعد الجغرافي بين الباحث والمخطوط الذي يعتمده في عمله في جل الأحيان.

١٢- الدراية برموز المخطوطات: إذ من المعروف أن المحدثين والنّسّاخ والمصنفين القدماء اصطلحوا على رموز خاصة في كتاباتهم استغنوا بها عن كلمات أو نحوها كعلامات البلاغ والمقابلة ورموز الضبط وأدوات تحمّل الأخبار، واشتهرت هذه الرموز بينهم وتواطؤوا على استخدامها؟ وقد بيّنت الكثير من ذلك كتب علوم مصطلح الحديث ؟ مثل (علوم الحديث) لابن الصلاح، و(تدريب الراوي شرح تقريب النواوي) لجلال الدين السيوطي.

١٣- الدراية معرفته بعلم الخطوط (الباليوغرافيا) وخاصة أنواع الخطوط العربية وتاريخ تطورها، والأماكن التي انتشرت أنواعها فيها = ذلك أن علمه بها يساعده في تقييم عمر المخطوط وعصره، ويساعد العلم بالخط على تحديد تاريخ نسخ المخطوط، نظراً إلى اشتهار كل بقعة وكل عصر في التاريخ الإسلامي بنوع من الخطوط، وهو ما يفيد الباحث في إجراء التفاضل بين النسخ الخطية التي حصل عليها، ويمكنه من إجراء ترتيب لها بحيث يعتمد الأفضل منها.

١٤- الدراية بتأريخ المخطوط: إن عدم القدرة على تحديد تاريخ عصر المخطوط يفقد الباحث القدرة على تقدير قيمة المخطوط ومدى قربها من عصر المؤلف وأهمية النسخة بين النسخ الأخرى.

١٥- الدراية بعلم المخطوطات: (الكوديوكولوجية) «CODIOCOLOGY»، وهو دراسة المخطوط بوصفه كائناً مادياً، ووصف المخطوط؛ إذ يلاحظ عدم ملاحظة الاعتناء بوصف النواحي المادية للمخطوط في مقدمة الكثير من المحققين مثل (التجليد- الورق- الخط- الحبر- العلامات المائية).

١٦- دراية المحقق بأسلوب المؤلف: إذ إن معرفة ثقافة المؤلف وعصره مطلبان هامان في هذا الأمر؛ لذلك فإن استحقاق الصلة بين صاحب الأثر والرواية عنه شرطٌ أساسٌ للثقة بصحة الرواية، ولهذا كان التلقي المباشر عن أصحاب الآثار عمدةً في الرواية عنهم. أمّا اليوم فقد انقطعت أسباب الرواية المعرفية، وأصبح ما ينشر من كتب التراث مجرد وجادات؛ فقد غدت

معايشة المصنف في الأثر الذي خلفه هي البديل الحقيقي للتلقي المباشر عنه. على أن هذه المعايشة تتطلب أشياء وأشياء: إنها تتطلب من المحقق أولاً فكراً منسجماً مع فكر المصنف، ومعرفةً قريبةً من معرفته، أو على الأقل إدراكاً واعياً لأفكار المصنف وآرائه؛ وإن الاطلاع على كتب المؤلف الأخرى، هو مما يعمق الصلة معه[١٢].

١٧- الدراية بالتعامل مع خط النساخ، لذلك فإن صنع معجم للحروف بحسب خط المؤلف يعد عملاً مساعداً للمحقق في حل إشكالات تقع للمحقق في ظل وجود غموض في قراءة بعض الكلمات.

١٨- إتقان المحقق للغة أوربية حيّة إضافة إلى لغة شرقية كالفارسية والتركية تمكنه الاطلاع على الدراسات العربية والإسلامية المرتبطة بموضوع اختصاصه والكتاب الذي يدرسه ويحققه.

١٩- إتقان المحقق لاستخدام المصادر الإلكترونية في التحقيق، ذلك أنه يعسر على بعض المحققين استخدام أدوات البحث المعاصرة التي أفرزتها الثورة الجديدة في المعلومات والاتصالات؛ هذه الأدوات التي تمد الباحث بسهولة فائقة في البحث عن المعلومات، وتفتح له آفاقاً جديدة أعماله.

إن العناصر الأساسية أعلاه تشكل مدخلاً أساسياً وعنصراً تأهيلياً لأي عمل يقوم به محققو التراث العربي؛ فقد بدأنا نشهد، مع الهجوم الكبير على تحقيق كتب التراث العربي ونشره، آفات يندى لها الجبين من قبل مدعي التحقيق، وهم أبعد ما يكون عن التحقيق العلمي الرصين، آملاً أن تكون هذه الورقات مفتاح حل ناجع لنشر ميراث علمي حضاري، فاخرت به الأمَّة على من سواها. ■■

الهوامش

١- (منهج تحقيق المخطوطات) إياد خالد الطباع، دمشق: دار الفكر، ط ١، ٢٠٠٢، ص ١٩.

٢- كما يقول الدكتور رمضان عبد التواب في (مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين)، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط ١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م، ص ٥.

٣- (في منهج تحقيق المخطوطات)، محمد مطاع الطرابيشي، دمشق: دار الفكر، ط١، ١٩٨٣، ص١٠-١١،٢٣.

٤- (مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين)، رمضان عبد التواب،

القاهـرة: مكتبة الخانجي، ط١، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٥ م، ص٥، ومابين حاصرتين زيادة من الكاتب.

٥- انظـر مبحث صفـات المحقـق في (منهج تحقيق المخطوطات)، إياد خالد الطباع، دمشق: دار الفكر، ط ١، ٢٠٠٢، ص ٤٠.

٦- (في منهج تحقيـق المخطوطات)، محمد مطـاع الطرابيشي، دمشـق: دار الفكر، ط ١، ١٩٨٣م، ص٣١.

٧- محاضرات في تحقيق النصوص، ص٢٠.

٨- مثـل صنيع الأستاذ عبد السلام هارون في كتاب «الحيوان» للجاحظ.

٩- مثـل ترقيـم الأحاديـث والنصوص في أعمال الشيخ محمد أحمد شاكر.

١٠- انظـر تفصيـل ذلـك في: (منهج تحقيق المخطوطـات)، إياد خالد الطباع، دمشق: دار الفكر، ط ١، ٢٠٠٣، ص٣٧.

١١- انظـر: (دلائـل تقديـر عمـر المخطـوط ومكان نسخـه)، إياد خالد الطباع، بحث منشـور ضمن أعمـال (الـدورة التدريبية الدوليـة الثانيـة عـن صناعـة المخطوط العربـي الإسلامـي خـلال الفـترة مـن ٢ولغايـة ١٤ أكتوبـر ١٩٩٩م) = المنعقدة في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي بالتعـاون مع المنظمـة الإسلامية للتربية والثقافـة والعلـوم وجامعـة الإمـارات العربية المتحدة.

١٢- (منهـج تحقيق المخطوطات)، إياد خالد الطبـاع، دمشـق: دار الفـكـر، ط١، ٢٠٠٣، ص ٥٧.

